

اكوجافا... وحمى الشعر الغنائي في روسيا

د. نجوى علي

سادت في الاتحاد السوفيتي في ستينيات القرن العشرين حمى الشعر الغنائي الذي ينظمه شعراء من طراز جديد يقومون بأنفسهم بانشاد قصائهم بمصاحبة القيثارة ، اي انهم لا يكتفون بأداء مهمة نظم الشعر بل وبتأليف الموسيقى والغناء . انهم كالشعراء المتجولين (التروبادور) في القرون الوسطى . وقد أملت ظروف الاتحاد السوفيتي آنذاك لجوء العديد من الشعراء الى سلوك هذا الدرب للتخلص من الضغوط الشديدة التي فرضتها السلطات والرقابة الحزبية على الابداع الشعري والادبي عموماً . ولو انهم لم ينجوا من الملاحقات بين حين وآخر . ويلجأ هؤلاء الشعراء الى الرمز والتلميحات التي يمكن تفسيرها بأشكال مختلفة . وهكذا اصيب بهذه الحمى شعراء منشدون بارزون مثل فلاديمير فيسوتسكي وبولات اكوجافا والكسندر غاليتش وغيرهم الذين كانوا ينشدون اشعارهم في كل مكان .. في الحدائق العامة والبياديين والمسارح والنوادي وحتى على البلاجات، اي اينما سنحت لهم الفرصة لذلك . وكانت تسجيلات اغانيهم تنتشر بسرعة في كافة ارجاء البلاد وحتى خارجها حيث تعيش الجاليات الروسية في المهجر . ويحتشد الآف الناس في يوم 12 حزيران من كل سنة وهو يوم مولد الشاعر بولات اكوجافا في ساحة تروبنايا عند مبنى مسرح " مدرسة المسرحية الحديثة" حيث تردد اشعار اكوجافا واغانيه من قبل شعراء منشدين آخرين من محبيه وتعرض على شاشة كبيرة تنصب في الساحة م شاهد من حفلاته الغنائية . علما ان الشاعر احتفل بعيد ميلاده السبعين في هذا المسرح بالذات.

والشاعر المنشد بولات اكوجافا (1924 - 1997) يمثل ظاهرة فريدة في هذا الميدان ، حيث ارتبط

اسمه بشوارع اربات التاريخي بوسط موسكو . وعرف هذا الشارع منذ القرن التاسع عشر بلقبه موطن اهل الادب والفن . فقد عاش في اربات الشاعر الروسي الكبير الكسندر بوشكين وكذلك عدد كبير من رجال الثقافة الروسية . واليوم يوجد هناك اكثر من نصب لهم ومنها نصب اكوجافا . ولهذا تغنى الشاعر به في قصيدته الشهيرة حول اربات :

انك تجري كالنهر . يالاسم الغريب!

الاسفلت شفاف، مثل ماء النهر.

اه، اربات، يا ارباتي، انك دعوتي،
وانت بهجتي ومصيبتي.
ان المارة فيك - اناس بسطاء
يدقون الارض بكعوب الاحذية - ويهرعون الى اعمالهم
اه، اربات، يا ارباتي، انك ديني،
وتربض تحت اقدامي احجارك المرصوفة.
لا شفاء من حبك ابدأ. ولو انني احببت اربعين الف شارع
آخر..

لكن عبثا نفتش في سيرة حياته عن شئ غير عادي ، فهو شب مثل الكثيرين في الاتحاد السوفيتي في
ظروف صعبة جدا وعانى منذ سن اليافع من الآلام والحرمان ثم فقد ابويه بعد ان طالتهما موجة القمع الستاليني
في عام 1937 .

ولد اكوجافا بموسكو من اب جورجي وام ارمنية وعاش في موسكو ونيجني تاغيل وتبليسي . وفي
البداية كانت طفولته هادئة في اسرة والده الذي كان ينتمي الى رجال النخبة في السلطة بالقوقاز حيث انتقل ابوه
للعمل. هذه النخبة التي كانت تتمتع بجميع خيارات الفئات الاستقرابية في العهد السوفيتي في الثلاثينيات.
لكنه شهد في اواخر الثلاثينيات، صعوبة الحياة حيث ساد طغيان العهد الستاليني ففي عام 1937 اعتقل
ابوه ثم اعدم وارسلت امه الى المنفى ووجد اكوجافا نفسه وهو صبي يافع في سن 13 سنة يحمل وصمة "عدو
الشعب" التي رافقته حتى سن البلوغ.

عاد الى موسكو ، مع شقيقه وعاشا عند جدتهما التي اشرفت على تربيتهما . في عام 1940 انتقل
اكوجافا للعيش عند اقاربه في العاصمة الجورجية تبليسي.

و امضى اكوجافا جميع اعوام طفولته تقريبا في المدن أي في موسكو وتبليسي حيث تشبع بلغة اهل
المدن كما تأثر بالثقافة المتمدنة، لكنه اكتسب في الوقت نفسه الاساليب الشعبية في التعبير عن الذات ولاسيما
باداء الغناء المنفرد بمصاحبة القيثارة. وكتب اول قصيدة له في عام 1943 بعنوان " لقد اصابنا الارق في
الاقبية الباردة .." وحمل طوال تلك الاعوام، وحين كان في المدرسة عبء جريرة والديه التي لصقت بهما ظلما

وعدوانا مثل غيرهما من الناس الذين عانوا من القمع الستاليني . وقد انعكس ذلك في اغانيه الحزينة لاحقا حين اصبح شاعرا منشدا.

وفي اعوام المدرسة وحين بلغ الـ14 من عمره بدأ بالعمل فقد عمل كمثل ادوار ثانوية في المسرح وكميكانيكي وخراط في مصنع للأسلحة . وكان بولات اكوجافا في سن 18 عاما حين نشبت الحرب الوطنية العظمى في عام 1941(الحرب العالمية الثانية) فذهب الى الجبهة متطوعا بعدما انهى الصف التاسع من المدرسة الثانوية في تبليسي و خدم شهرين احتياط وبعدها ارسل الى الجبهة في شمال القوقاز واصيب هناك بجروح. وبعد ذلك سرح في عام 1945 من الجيش ورجع الى تبليسي واكمل درساته الثانوية وبعدها التحق بجامعة تبليسي-كلية اللغات حيث درس فيها في الفترة من 1945-1950. ومن ثم عمل مدرسا للغة الروسية في مدرسة ثانوية في احدى القرى الجورجية . علما ان موضوع الحرب يتخلل جميع اعماله الابداعية وكتب سيناريوهات لعدة افلام عن احوال الحرب مثل " جينيا جينونشكا و"كاتيوشا" و " الاخلاص". كما كتب الاغاني وألف الحان فيلم " محطة قطار بيلوروسكي" الذي يمثل رمزا لرجولة وبطولة المقاتلين في الصراع ضد الفاشية الهتلوية.

شهدت فترة النصف الثاني من الخمسينيات ومطلع الستينيات بعد تولى نيكيتا خروشوف زعامة البلاد عقب وفاة ستالين ما يسمى عهد "الدفء" الذي ساعد على نهوض تيارات ثقافية جديدة وكان من بينها تيار الشعر الغنائي الذي كان بولات اكوجافا أحد مؤسسيه.

و تجربت اكوجافا الشعرية تستحق الإنتباه، حيث انه يعود بالشعر الى منابته الأولى..الى الغناء، فهو لا يكتب الشعر والقصائد من اجل النشر او الالتقاء وانما يغني الأشعار!! فقصيدته تولد لديه كأغنية، كلحن، ثم تتشكل في كلمات، تأخذ شكل القصيدة. أغاني اكوجافا ساخرة، مرحة، وملئية بالمرارة. إنها أغان وقصائد شجاعة، وكانت بعض اغانيه تفيض بالحكمة، ليست حكمة الكتب، الحكمة النظرية، وانما حكمة الحياة. ففي قصيدة "مهلا، ايها الزمن المندفع، خفف من انطلاقك الجامح" يدعو الزمن الى الوقوف لكي لا تعاجله الشيوخة بسرعة حيث ينتظره بعدها الموت :

مهلا، ايها الزمن المندفع، خفف من انطلاقك الجامح

هذا العباء فوق طاقتي، عبء القلق والخسائر.

كن اكثر رأفة ورحمة ورأفة، ولا تطوقني بالشر.

هاهو الصيف يلوح امامي وراء الركن القريب.
فات الالوان للبكاء والغفران. الطريق الى الضفة شديد
الانحدار.

وهناك تتطلع ابواب الجنة المنيعه والرهيبه.
لم ينفع التاج، وعبثا اطلقت النيران..
فيما جمدت الحياة والمصائر على مجذاف جارون* .

او حين يتحدث عن عازف الناي العجوز وكأنه رمز خريف
العمر :

اه، ياعازف الناي، ياعازف الناي ، في الجاكيته العريقة،
انت تمسك الناي بيدك المطيعة،
ها قد انتهى النهار، وهكذا تمضي الحياة،
كما لو انها ورقة شجر تسقط في الخريف.

من جانب آخر نجد انه حتى عشق الفتاة عضوة الكمسمول (اي
منظمة الشبيبة الشيوعية في الاتحاد السوفيتي) يميل في شعر
اكوجافا الى نوع من الغزل العذري والصوفية ويخلو من وصف
محاسن الحبيبة ومزاجاتها :
انها ستغادر البيت قريبا،
وستنشأ المعركة حولنا قريبا،

.....
* جارون: القنطورس الذي ينقل الاموات في قاربه عبر نهر ستيفكس الى مملكة
الظلام (في الاساطير اليونانية القديمة).

لكن ربة الكسمول...
اه، يا اخواني، هذا حديثي عن صديق.

في ركن الشارع عند المخبز القديم
هناك حيث ينشر الصيف الغبار
تسير الكسمولية
بقميص ضيق ازرق.
وقد قصت ظفيرتها،
التي ترقد في صالون الحلاق.
وتتدلى فوق صدغها فقط
حلقة ذهبية.

تعتبر مرحلة الأربعينات من أغنى المراحل تنوعا في تاريخ الشعر الروسي، وذلك من خلال رصد مختلف أجواء الحرب العالمية الثانية، والتي سميت بالنسبة لروسيا - والاتحاد السوفيتي السابق عموما - بالحرب الوطنية العظمى، ويمكن القول أن الصدارة عادت للشعر كونه الأكثر قدرة على مواكبة الأحداث العاصفة، وذلك من خلال تنوعاته وتواصله المباشر مع الجم اهير التي كانت بأمس الحاجة إلى الدعم النفسي والروحي لمواجهة الظروف القاسية الهائلة التي كان يمر بها .
ولعل انتشارَ الشعر الغنائي هو من أهم الظواهر التي أخذت مداها في تلك المرحلة ، فقد لعبت الدور المحوري الأول كرسالة صوتية تثبت عبر الإذاعة ، ومن ثم يرددها الجنود على الجبهات وأهاليهم في الداخل .
وقال في رثاء صديقه سامويلوف :

ديزيك، عزيزة لدي تقاليدنا..
الإخلاص، النصر، سمكة "الفوبلا"، الحرب،
الإرادة، البهجة، واحتمال النجاح،
لقد خدمت كلها مثل احلام الطفولة.

شارك اكوجافا في مهرجانات غنائية عديدة عقدت في اوستراليا والنمسا وبلغاريا وبريطانيا والمجر
وإسرائيل وإسبانيا وإيطاليا وكندا وبولندا والولايات المتحدة وفنلندا وفرنسا وألمانيا والسويد ويوغوسلافيا ،
واليابان
و قد ترجمت إلى لغات عديدة ، ونشرت في العديد من البلدان.
تزوج اكوجافا في حياته مرتين المرة الاولى من جالينا فاسيليفنا وله ولد منها اسمه ايغور
وللمرة الثانية من اولغا فلاديمروفنا - المتخصصة بعلم الفيزياء- وعاشا معا في موسكو ورزق
منها بولد اسمته بولات على اسم ابيه .
توفي اكوجافا عام 1997 في باريس بعد ان اجريت له عملية معقدة في القلب ومن ثم نقل
جثمانه الى موسكو حيث دفن في مقبرة فاكانكوفسكوي حيث يرقد مشاهير الرجال في البلاد.
هذا ويقام سنويا في يوم 9 ايار.. في يوم عيد النصر مهرجان تقليدي تحت عنوان احدى قصائده
" سادعو الاصدقاء .." تكريما لذكرى الشاعر ..



